فدوى طوقان : تجربة في الحياة والتعبير

بقلم محيي الدين صبحي

انا يا رب قطرة منك ، تاهت
فوق ارض الشقاء والتنكيد
فمتى اهتدي الى منبعي الاسمى
وافنى في فيضه المنشود ؟
ضاق روحي بالارض ، بالاسر
بالقيد ، فحرر روحي وفك قيودي
ضمني ، ضمني اليك ، فقد طال
انفصالي ، وطال بي تشريدي ..

لعل الابيات السابقة ترسم صورة مجسمة لاحاسيس الشاعرة بعيد مراهقتها . والغاية من هذه الصورة ان توضح الحياة النفسية لمراهقة نشأت في مجتمع محافظ يمنع الفتاة من التعرف الى اية فكرة مباشرة وصريحة عن الجسد وشؤون القلب ، ويحاول ان يستبدل هذه الافكار بتوجيهات ميتافيزيكية ، تملأ عواطفه وتلهيه عن واقع حياته . وهكذا ، فبعد الصدمة الاولى مع الجسد في حادثة البلوغ ، ينفصل المراهق عن الارض ويربط عواطفه بالسماء . ومن خلال الهجس والتوجس والاخيلة والكآبة والعزلة يجد الطريق الى جسده من جديد ، فيستكشف احتياجاته الارضية ، وتتأكد لديه فكرة العلاقة بالاخرين .

ان تثبيت هذا المنعطف بين البلوغ والحب الاول ضروري جدا لتعليل كثرة القصائد الروحية التي تملأ الديوان الاول « وحدي مع الايام » . اننا هنا نواجه تساميا غير واع ولا مقصود . ونجد انسياحا في العواطف ويقظات مفاجئة تتبعها اسئلة فجة عن الحياة والموت . كطريقة لاستعادة الاحساس بالجسد . فكاننا ـ تجاه هذه الحالة ـ امام ينبوع تفجر ماؤه فوق ارض مستوية فانساح على مساحة واسعة من الارض السهلة ريثما يستطيع ان يحفر اخدودا تجري مياهه فيه . لذلك لا عجب ان بدت فدوى طوقان في ديوانها الاول عاشقة للمرح ، للربيع للعزلة والخيال . ان المراهقة والعاطفية الشديدة تتجلى في السمو والتسامي ومناجاة القمر والخلود الى الصمت والحديث عن السكون والتوزع بين حب الطبيعة وحب الرجل . لكن هذه العاطفية المفرطة لا تقودها نحو الفرح واللذة لان الكبت يضطرها الى اختزان طاقتها ، وبذلك تصبح الحياة نوعا من الاجترار الداخلي والحزن الغاضب والاسى على الشباب ينطوي بين كآبة المساء وهموم الليل . ان هموم الحياة وتأمل الطبيعة واهمال العاطفة والجسد يفجر هما لا يلبث ان يتحول الى سأم يوحي بالموت لجسم يدوي باستمرار . ان هذا الكيان الانثوي المعبأ بكل النزوات البحر سوف يمنح نفسه لاول زائر يتناوله ، وهو هنا . الموت : لذلك تناجيه مناجاة الحبيب المجهول :

أه يا موت ! ترى ما انت ؟ فاس ام حنون ؟
أبشوش انت ام جهم ؟ وفي ام حزون ؟

وما دام الموت يعبث بالجسد ، فانها تتردد بين اخيلة الدود والبلى ، وبين الترحيب بهذا الوافد الغريب الذي يستولي على الحياة ويتلاعب بالاعضاء . ان الموت يخلصها من جسد وهي تتمنى ان تدفن في ظل زيتونة :

جذورها تمتص من هيكلي ولم يزل بعد طريا رطيب
تعب من قلبي انواره ومنه تستلهم سر اللهيب

فهي لم تمنح شيئا من نفسها لانسان ، ولا اقل من ان تدفن هذا الجسد في جذع زيتونة مخصبة : ان فكرة الدفن ليست اكثر من رمز جنسي قد يحمل معنى الهروب من الجسد ، وقد يحمل معنى الاستقرار في حياة رتيبة . اما شجرة الزيتون بجمالها وثمرها بزيتها وحضرتها الدائمة وحياتها الطويلة ، فهي الحياة والخلود مقابل الموت والفناء . ان اللقاء الذي يحدث بين الجسد وشجرة الزيتون يحمل كل الخصب والتجدد .. فيه معنى البعث : الشجرة تمتص الجسد والجسد يجعل الزهرة تزدهر .. هذه الحياة الخفية المستترة في اعماق الثرى وخلجات البدن المستكين ، الحياة المنشأة من العطاء والاستسلام ، او من المنح الخفي والقبول الذي يؤدي الى النمو .. هذه الحياة هي الحلم الهني عند البنت البكر في أول احساسها بانوثتها انها تريد ان تستقر حتى الفناء في ظل رجل نضير يستمد منها بقاءه وزهوه .

لكن الموت لا يتيسر لها بل تستمر حياتها في ذلك الواقع الذي تؤلفه عزلتها وفجيعة اسرتها بالاب والاخ والصديق :

هذي حياتي : خيبة وتمزق يجتاح ذاتي
هذي حياتي ، فيم احياها ، وما معنى حياتي؟

والسؤال الاخير (ما معنى حياتي) يحمل الشك في عناصر حياتها الماضية . صحيح انها لا تطرحه بالتوتر الذي يقتضيه لكنها تستبدل التوتر بالبساطة ، لان السؤال لا يحمل معنى وجوديا بل معنى سلوكيا . ولهذا السبب

تتحول عواطفها عن التهويمات الصوفية الى دفء عواطف القلب الذي يخفق لحب خجول :

... ومضت بي الايام ، لا انا صرحت ولا لهفتي الحيية تبدو كم وكم راح يحتوينا مكان ، وانا صبوة تـوارت ووجد

وفي هذا الحب الهلامي تشعر الفتاة بانها ليست وحيده في هذه الحياة . ان انسانا ما يعيش قريبا منها . ان الانسان يبعث الالفة في النفس ، اما الطبيعة ، فتزيد من الاحساس بالوحشة . وتتعقد الحياة بين الهجر والوصال والاعتذار وتدخل الناس والفراق الذي يؤدي الى عودة الشاعر الى الطبيعة ومناجاة الليل . وبذلك يكون الديوان الاول « وحدي مع الايام » سجلا لقصة اكتشاف العاطفة واكتشاف الخيبة وما في ذلك من اثر في القلب والشعور . اما الديوان الثاني « وجدتها » ففيه ثمار ذلك الاكتشاف . وفي الديوان الاول صورة الشعور البكر والانطباعات الاولى ، فهو مليء بالدهشة .. بينما نجد في الديوان الثاني صورة الخبرة واقتحام العالم السحري بخطى اكثر ثباتا وثقة ، فهو مليء بالزخم .. ان فيه من واقع الحياة اكثر مما فيه من توهان الافكار او طغيان المشاعر ، والعواطف تعرض من خلال الحوادث او اصدائها في الذاكرة ، ان ثقل المعرفة والواقع يمنح الشاعر طمانينة تجعلها تهتف :

وجدتها، يا عاصفات اعصفي وقنعي بالسحب وجه السماء

لقد زعمت انها بعد ذلك الصراع الطويل وجدت نفسها وعرفت افكارها . اما كيف حدث ذلك فهذا ما لا تجيب عليه الشاعرة مباشرة وعلينا ان نستنتجه من الديوان. ومن يرجع الى قصيدة « هو وهي » ثم يقارنها ببقية قصائد الديوان فسوف يجد ان هذه القصيدة تضم معظم الحوادث التي تدور عليها بقية القصائد . ان قصيدة « هو وهي » تقدم لنا ـ ببساطة ساذجة ـ قصة حب بين فتاة شاعرة سجينة وبين شاعر ثائر يراسلها من بعيد ثم يجتمعان فيبوح لها بحبه وتفضي اليه باحزانها ، ثم يفترقان ، حتى اذا التقيا ـ بعد عامين ـ تجدد الوجد واشتعل الافتتان وروى كل لصاحبه قصة حياته : الشاعر شاب يكافح الفقر والاستعمار والشاعرة ثائرة على كل القيود. ويعترف الشاعر بانه عرف اجساد كثير من النساء وظلت روحه هائمة الى ان وجد الشاعرة ، وتعترف له الشاعرة بانها تندم الان على سويعات قضتها في هوى طاهر ، فيغفر لها وتغفر له وينتهي المشهد بقبلة ندية . وتغرق الديوان عاطفة حنان اموي تجاه رجل متعب سأمان :

ووسدت راسك قلبا سخي
العطاء ، ولف النقاء كلينا ..

اما المراة فقد وجدت في هذه العلاقة السلام والصفاء :

وحين تعود
يعود الوجود
تمد ذراعين مفتوحتين
الي ، ويصبح قلبي سموحا
صفوحا ، دفوق العطاء ..

ولما كان هذا الحب قائما بين شخصين متباعدين فان الذكرى تلعب دورها في نفسيهما :

هكذا .. كلما الح عليك الشوق
عد للماضي وعش في الذكر
واحي ايامنا ونحن على النهر
ونيسان ضاحك في الضفاف
راقص الظل .. رائع الاطياف
وانتظري ، غدا سيجمعنا الحب
شتيتين في حماه استقرا ..

على ان هذه العلاقة الصميمية التي يغمرها الخصب والعطاء الوفي ، لا تعدم ان تهب عليها رياح الغيرة والشك : فالحبيبان بعيدان

وقلت : نسيت هواي
عرفت هناك سواي .
تمر دهور ولا تكتبين
ولا تسالين
الا تعرفين
جنوني ؟ وكيف يثار
وكيف اغار ..

ان هذه الانفجارات تجعل العلاقة اكثر انسانية ، اذ تمحي تلك السكينة التي تسود عالم الالهة وينتاب الضعف تلك الثقة اللامتناهية ، ولكن يبرز ما هو اعمق من كل تاكيد:

فساعتنا هذه في الجزيرة
بحضن الظهيرة
ستبقى تعيش بروحي دقيقة
وراء دقيقة
وتحيا كروحي بقلب الابد .

ومن المؤسف ان كل هذا ينتهي بلحظة ندم :

كم يسالون :
لمن ترى تنشدين
هذه الاغاني الناعمات الحنون
واخجلي لو انهم يعلمون
ما انت او من تكون !!

يبدأ الديوان الثالث « أعطنا حبا » بلعنة تقذفها الشاعرة على سنة ١٩٥٧ بما حملته اليها من مرارة وغدر ، لكنها تتلقى المستقبل بأشواق وقرابين تتناسب مع طبعها السموح . وتغلب الصيغة التاملية على الديوان . فالشاعرة تتألم ولكن دون تشنج . لقد تجلت لعينيها صورة السراب الذي يغلف العلاقات الانسانية . امحت من فكرها تلك الصورة المراهقة لحب ابدي عميق يدوم ما دامت الحياة ، ودخلت فكرة الزمان في العلاقة ، فخفت حدة الطعنات وصارت الشاعرة تتحدث عن الحب الماضي كعلاقة عابرة يستطيع ان يصنعها اثنان :

كان وهما . نحن اعطيناه شكلا وحياه

اما الذكرى التي طالما ارقت لياليها فقد ماتت واصبحت جثة :

بعض ذكرى منه هيأنا لها نعشا وقبرا

وقد خسر الحبيب مكانته وسقط الى اغوار النسيان:

لقيتك امس ، ولكن عيني انكرتاك، فلم تعرفاك

واصبحت تستقبل الخيانة بضحكة ، وتخون وهي تضحك . فاما انها يئست واما ان تجربتها بلغت من الكثافة حدا امحت معه الدهشة والمفاجأة :

وتسأل : اين الوفاء ؟
اما من وفاء ؟
واضحك في وجهك المتجهم
اسأل مثلك : اين الوفاء ؟

ولعل الشاعرة غرقت في دوامة توالت فيها الحوادث حتى لم يعدلها من الوقت ما ترجع فيه الى نفسها :

وقد ضاع وجهك بين زحام الوجوه بافق حياتي المليئة

انه اعتزاز امراة بأنوثتها وسحرها .. امراة لم تطو الانواء شراعها ، ولم ينشف من الجدب رواؤها .. وهي

اذ ودعت العام القديم بلعنة وتحقير فانها تمد ذراعيها الى المستقبل بثقة ويقين :

اعطنا حبا ، فبالحب كنوز الخير فينا تتفجر

فأنوثتها المعطاء لا تألف الكره ولا تسيغ الانفراد . انها دائما تتلهف الى الاخر الذي سوف يتقبل كل حنانها ويعيش فيه مثل طفل مع امه . ان الحب يفيض من وجودها .. من كل كيانها .. ويبعثها من جديد ، فهي تحتاج الى الحب لتعطي لا لتأخذ :

لهواك كل مواسمي امتلأت وسخت بفيض جنى وازهار

وهي من غنى النفس بحيث لا تحتاج الى الوجود المادي لشخص الحبيب .. يكفيها ان تعرف بان ثمة من يتقبل هذا الحب ويتلقاه حتى تطمئن وتشعر بالحب يسري في قلبها ويشعشع الدم في عروقها .. وبعد ذاك فليس للقرب او البعد قيمة .

غبت ! ولو غبت ، فما زال في
دمي عبير منك .. يرويني
غبت ، فايامي رؤى وانتظار
حلو ، على الرجاء يطويني ..
وحين يؤوي الليل اهل الهوى
أحضن اشواقي واغفو على
ذكرى توافيني
ذكرى هنيهات ملاء قصار
أحملها في سر تكويني

وتحس احيانا بمرارة الفشل، وتحاول ان تعيد تكوين نفسها وان تبتعد عن تهورها . انها تود لو تنفرد بنفسها وتعيش بلا حب .. ولكن عبثا تحاول فهناك شيء اكبر منها يشدها الى عناصر حياتها الماضية . ان اشواقها اكبر من ارادتها . ومأساتها انها حاولت ان تخالف طباعها . ولقد عرفت الشاعرة ذلك فكتبت : « لا اومن بجبرية تأتينا من الخارج ، وانما الجبرية تكمن في داخل الذات هي جزء لا ينفصل عن النفس ، ومن هنا مأساة وجودنا الانساني » . ولعلها كتبت ذلك حين احست بان مشاعرها ترهقها ورأت حياتها تتسرب من اصابعها، ومع ذلك فليست نادمة بل مصممة على السير في الخط ذاته لانها غير مخيرة:

لو اني رجعت صغيره
لو اني رجعت وملء يديه
تجارب عمري وخبراتيه
وما لقنتني الحياة الكبيره
وما علمتني السنون الكثيره
لعدت برغمي لاخطائيه
ونفس حماقاتيه

ولا ريب في ان لطبيعة الشاعرة الانفعالية اثرا كبيرا في هذا الحكم الفطري . لكن حيويتها تتغلب دائما على يأسها وثقتها بانوثتها تساعدها على النهوض من كل كبوة. وهي تختلف في ذلك عن بقية شاعرات العرب . ان نازك الملائكة مثلا تتمرد على عاطفتها لكن ذلك يؤدي بها الى انفصال اسود عن عالم الرجل . وان تودد سلمى الخضراء يخلق مساواة شريفة بين المرأة والرجل ، اما فدوى طوقان فانها قد تتردد قليلا ثم لا تلبث أن تندفع لانها ترى في الحب قدرا مقدورا وخلاصا نهائيا . ومن يطالع قصيدة « ذاك المساء » يشعر بالفرح ممتزجا بالمرارة . انها تتألم من ضعف مقاومتها.. لكنها تغفر لنفسها ذلك الضعف فبعد عشرين يوما من الهجر تسير في الطريق دون غاية وهي تفكر بأنها اذا رأته فلن تبالي به وفجأة تلتقي به فتتجمد ... وتراه يتجه نحوها ثم يصافحها دون ان تقوى على الانسحاب :

هو !! وانتفضت ، وحاصرت عيناي منعطف الطريق
وقطعت مفترق الدروب ورحت تدنو من مكاني
هي خطوة او خطوتان ..
ووقفت في ظل الجدار معي هناك على الرصيف
لم ادر ماذا قلت ، كيف تعانقت منا اليدان
ببساطة ، بسهولة . وتسمرت
عيناي في الوجه الذي ادمنته
في واقعي المحتوم ، في قدري الذي قاومته
عشرين يوما ضائعا قاومته

ورفضته ...

على ان رضوخها يقف دائما عند حد الكبر ، واستجابتها تتوقف اذا لم تجد صداها .. وهي تغادر مكانها اذا ما افتقدت طمأنينتها فيه :

لا تمسكينا يا جزيرة حلمنا
انما سنمضي عنك ، لن نبقى هنا
نعطيك من اشواقنا عبثا ومن اعمارنا

ورغم انها تعرف ما ينتظرها من فراغ ووحشة وضياع:

سنعود نسلم للرياح شراعنا
ونظل نحمل تيهنا وضياعنا

فانها تعزي نفسها بشجاعة :

ونحن نحضن كبرنا وجراحنا ...

ومنذ ان يختل دور الحب في حياتها ولا يعود قيمة اساسية فانها لم تعد تبالي بما يعبر في حياتها عن ملذات وهزائم . لقد ضاع الى الابد ذلك النقاء الوهمي من مخيلة مراهقة حاولت ان تجد في الحب مملكة السماء على الارض وقد انهدم عالم الحلم فعكفت على نفسها تتفحص اصداء ذلك الضجيج المتسارع بكل ما يثيره في الروح من غبطة وغثيان . ان التجارب تتعب النفس ، والخيبة تشل الروح والتأمل يبعث السأم . ولعل الشاعرة بعد ان تاقت الى الحب ومنحته عطاء انوثتها ، وبعد ان ازهرت الحياة في نفسها الف مرة ثم تساقط الزهر ولم يعقد ، وبعد ان جاشت حناياها ثم وجدت انها تهب حياتها للوهم .. لعل الشاعرة ادركت ان

الهوى ، كان ملاذا وهروب
من ضياعي وضياعك

ولذلك صارت العلاقة تنقطع دون سبب مباشر ... هناك غول يفوق ارادة الطرفين في الابقاء على الصلة بينهما،

لا تقل ان الملال
لم يلفعنا وان اليأس لم يلق علينا
ظله القاتم ، لم يبق لدينا
قبسا يطفو على احلامنا ..

وحين يسيطر السأم يستشعر الانسان ضعفه وتلاشي قواه وعجز الاخرين عن مساعدته ، فيحتقر الصلة التي تربطه بهم لانه عقدها فرارا من السأم . ويغادرهم تائها ليضرب في صحراء الحياة .

انتهينا يا رفيقي
حبنا كان استغاثات غريق بغريق
لم تكن تملك لي شيئا ولا كان لدي
لك شيء .. وتلاشى صوتنا ..

كل هذه الدلائل تشير الى انعطاف حقيقي في حياة الشاعرة ، انعطاف بافكارها وآمالها وشعورها وشعرها. وربما لانستطيع التنبؤ بالقيمة الجديدة التي سوف

تتبناها ، ولكننا نستطيع التأكد من انها لن تغادر عالم الحب. فأنوثتها الهادرة وعواطفها الجارفة اكبر من ان يفترسها وحش السأم حين يجثم على النفس بلونه القاتم وصمته الرصاصي . واذا كانت تستمع لصوت العقل والتجربة حين تقول لصديقها :

انت تدري . لا تسل عن حبنا
نحن حاولنا ولكنا فشلنا
فان حسرتها تتفجر حين تقول ملتاعة :
أسفا ، ماذا غنمنا ؟
غير غصات اسانا وجراح الاغنيات ؟

هذه تجربة امراة لم يهزمها رجل ، لكن الحياة جرحتها بالعبث الكامن وراء كل تجربة . انها اصبحت ضائعة تعوم في بحر صاخب ، لكن عطاء قلبها اكبر من غدر الاحبة وتلون المشاعر .. لانها تعرف كيف تخلق الفرح لتمحو به المرارة والاسى وحتى السأم .. ولانها تعرف كيف تستجيب للصوت الدافيء واليد الممتدة .. هناك يغمرها شعور بالسعادة وترتد اليها طفولتها . وهي لن تستجيب لخمود السأم لانها لا تستطيع الحياة دون اخذ وعطاء. ذلك هو قدرها. وان توهج النار في اعماقها يجعلها من القليلات اللواتي يعرفن كيف يجعلن مباهج الحب اكثر من احزانه، ولذائذ العطاء اكبر من مآسي الحرمان ...

**
*

كان لابد من تخطيط صورة عن تجربة الشاعرة قبل الحديث عن فنها ، لان الشكل والتكنيك وطرق الاداء تخضع بصورة مباشرة لطبيعة الاديب ومزاجه وتجربته وثقافته . فامراة انفعالية سريعة التأثر والاستجابة والرقص ، لا يجوز ان نتوقع منها الا المقطوعات الغنائية السريعة والنفحات العاطفية المشحونة بعنف اللحظة العابرة . كما ان اقتصار معنى الحب على التجربة الفردية دون اي منظور فكري يوجب وقف التعبير على الطريقة الغنائية كما يحد المضمون باستعراض الحوادث اليومية من موعد او نزهة . ويبدو ان في الفن مستويين للتعبير والاداء . هناك المستوى الزمني الذي يتناول الاحداث العابرة بشكل مباشر وسريع ، وهناك المستوى الانساني الذي يعلو بالتجربة على الزمان ويقيد الحدث بجذور الخلد ويربط الصراع بالقيم . وان معظم شعر فدوى طوقان خال من القيمة ، محدد الصراع بمشكلة وقتية اذا زالت ملابساتها لم تترك اثرا جذريا في النفس

لقد نظمت الشاعرة ديوانها « وحدي مع الايام » في عام ١٩٥٢ وما قبله اي ان وعيها الفني وتجربتها الشعرية قد تما ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ حين كان لبنان يتخلص من رومانسية جبران ويفسح الطريق لرمزية سعيد عقل. وفي سورية نشطت الكلاسيكية على يدي بدوي الجبل واستعربت الرمزية في ابداع عمر ابوريشة . وكان التوجيه الثقافي للحركة الادبية بين العرب تابعا لمصر التي تملك صحافة قوية ودور نشر ضخمة في ذلك الحين . ومع ذلك فان فلسطين قبل الاحتلال اليهودي ـ كان الشعر فيها محافظا على اتباعيته ، ويظهر ان لروح المقاومة اثرا في تنشيط الشعر الحماسي الذي يعتمد على الخطابة . وفي تلك الاونة كانت جماعة ابولو تتولى تصدير الرومانسية عن طريق الشابي وعلي محمود طه وابراهيم ناجي . وديوان « وحدي مع الايام » نتاج لمدرسة ابولو مع تأثر شديد بايليا ابي ماضي . ولذلك نجد بناء القصيدة مسطحا ليس فيه ذروة ولا سفح والتشبيهات مباشرة والمعالجة عقلية والتجربة ذاتية . وفي بعض الاحيان تنحو منحى القصة الرمزية التي ابتدعها ايليا ابو ماضي كما في قصيدة « الروض المستباح » . وهي تلجأ الى العرض الخارجي ونقل الحوادث بصورة تقريرية تحدد فيها مسبقا كل الصفات التي تريد ان توجه بها منحى الحوادث بدلا من ان تجعل القاريء يكتشفها وهي في حالة الصيرورة . ومن المعلوم ان هذه الطريقة تؤدي الى تثبيت الصورة ثم تجميدها وهذا يعود الى المفهوم الثبوتي « الستاتيكي » الذي كان يسيطر على الفكر الادبي والذي كان يهتم بتلخيص التجربة وعرض نتائجها . وقد اكتسبت الشاعرة من هذه المدرسة صفاء الاسلوب وقوته . ان اسلوبها ليس جزلا لكنه ليس سهلا . ولا ريب ان لاسلوب اخيها الشاعر ابراهيم طوقان اثرا ليس بالقليل في تنمية ذوقها وتوجيه موهبتها . ولقد رثته بلوعة وحزن :

اين ابراهيم مني ، اين اين ؟
حبة القلب ونور الناظرين
انا من عيش وموت بين بين
فلعل الحين موف عن قريب.
يمسح الجرح والام الحنين

ونستطيع ان نحكم على اسلوبها الاول بانه بحتري معاصر ، يجمع بين الرقة والمتانة ، الا ان جمود البناء والصور يقللان من تذوقنا لشعرها ويحجبان التجربة عن ادراكنا . على ان هناك هنيهات من الصدق والاستغراق تطغى فيها العواطف ويجيش الانفعال فتخرج الشاعرة عن خطتها العقلانية وتعطينا التجربة بكل ما في الانفعال من حركة نفسية وتوهج شعوري . ويبدو ذلك في ثلاث قصائد هي « غب النوى » و « في محراب الاشواق » و « الى صورة » . فهي في القصائد الثلاث تعرض التجربة عرضا صوريا يحتوي بداية وذروة يبلغ فيها الانفعال اشده ثم تنتهي بخفوت الراحة النفسية . واذا كانت قصيدة « غب النوى » مسطحة بعض الشيء فان قصيدة « في محراب الاشواق » تنجح في نقل الحيرة والذكرى واستعادة عالم الامس حيا :

هذا مكانك ، اين انت ؟ واين اطياف الفتون ؟
المقعد الخالي يحن اليك مرفقه الحنون..
اسوان ، يرمقني وقد اهويت انشج في سكون
ومواجدي ملهوفة النيران تهدر في جنون

فهذا الصوت الهامس ، والتساؤل الحائر ، وحنين المقعد الخالي وحزنه والنحيب المكتوم والعواطف المجنونة .. والانفعال المنقول بالبحر الكامل والقافية المقيدة ورنين النون وانين الواو .. كل ذلك يؤدي الى عمل فني فيه الكثير من الصدق والاتقان . وتحقق قصيدتها (الى صورة) نجاحا اكمل . انها تحوي ثلاث ذرى انفعالية من خلال القصيدة الواحدة ، تنضم الذروة الاولى الى الثانية كما تتلاحق الموجات وهي تندفع لتبلغ غايتها في اغراق الحبيب بين الشك واليقين :

اذهبي ، واعبري الصحارى اليه
فاذا ما احتواك بين يديه
ولمحت الاشواق في مقلتيه
مائجات اشعة وظلالا
مفعمات ضراعة وابتهالا
فاحذري . لا تعبري . لا تبوحي
لا تبيني تأثرا وانفعالا
واكتمي عنه ما يزلزل روحي

منه ، واطوي هواي عن عينيه

ولكن الشاعرة لا تتابع تطورها في خط صاعد نحو تلك الذرى التي شارفتها ، لان قصيدة « هو وهي » في ديوانها الثاني تجمع كل اخطائها الفنية السابقة وتعدو القصة حكاية تفتقد صلابة النثر وكثافة الشعر ، فضلا عن ان الحوادث في القصة معدومة تقريبا وكذلك التوتر ، اما الشخصيات فانها باهتة هلامية ليس عليها من صبغة الحياة اية اشارة تدل على خصوصية الابطال . كذلك تفقد الشاعرة كثيرا من لغتها النقية واسلوبها المتماسك وحسها باللفظة الرشيقة والاشارة العابرة ـ وهي الميزات التي كانت تزين ديوانها الاول . وقد تفشت في نظمها الروح النثرية وتميع اسلوبها لكثرة الصفات التي ترد فيه ، كقولها من قصيدة « القيود الغالية » :

ويصبح قلبي : سموحا
صفوحا ، وفوق العطاء
شفيفا يغني كطير سعيد
خفيفا ، كقلب الصفاء
بنى عشه في ربى الجنة

فهذه الصفات التي تتوالى دون سبب تؤدي الى تميع الاسلوب ، فضلا عن ان الفكرة مبتذلة ، بل ليست هناك فكرة ما مما يؤدي الى عامية ظاهرة في الاسلوب والاداء والصورة . وتغيرت في بعض الاحيان طريقة العرض . فقد تخلت الشاعرة تقريبا عن اسلوبها القديم في البناء المسطح واللهجة المباشرة ، واصبحت الحياة النفسية اكثر ظهورا من خلال التجربة ، وظهرت لديها القصيدة التي يمكن ان نسمي اسلوبها بالبناء الدائري ، اي الذي يبدأ من نقطة ثم ينطلق ليعود اليها في النهاية . وعلى هذا النهج تبدو قصيدة « وانتظرني .. » و « هل كان صدفة » و « في الكون المسحور » وغيرها . ولتوضيح هذه الطريقة نجد ان قصيدة « وانظرني » تبدا بهذه النجوى :

حين تبدو الحياة في يومك المقفر مني كئيبة مملوله
فامض نحو الجسر الكبير مع الذكرى ورعشاتها
العذاب الجميله .

وتتسع الدائرة حين تعيد اليه الذكريات صورة اللقاء والمسير على الشط والمضي الى الضفة الثانية ، ثم تنتهي القصيدة بالبداية ذاتها تقريبا :

هكذا كلما الح عليك الشوق عد للماضي وعش في الذكرى

ونجد في الديوان الثاني قصائد من الشعر الجيد تقف لاحسن نماذج الشعر المعاصر ، ويمكن ان تؤخذ قصيدة « العودة » كمثال تستخدم فيه الشاعرة الصورة للتعبير عن التجربة بدلا من الافكار المنظومة ، فتنمو القصيدة نموا عضويا يبلغ ذروة الانفعال ثم ينحدر . وهي تبدا بهذا المطلع المفاجيء بمباشرته الشديدة :

واطل وجهك مشرقا من خلف عام

وتمضي في تصوير هذا العام الموحش . فتستخدم الاسلوب القرآني في التهويل بالارقام :

عام طويل ظل في عمري يدب كألف عام
ثم تصف الضنى والرعب البارد في اعماقها :
عام ظللت اجره خلفي وازحف في الظلام
وعواصف ثلجية تصطك حولي ، والطريق
كانت تضيق كأنها امل يضيق
ويضيع في تيه القتام

فالفكرة الاساسية هي الشعور بالزمان الكئيب ، وجاء التجسيد على صورة انسان يزحف في الظلام ويجر ثقل ايامه في تيه ضيق معتم لا يوحي بأي أمل في النجاة منه . وفي المقطع الثاني تصور انقطاع كل اتصال بينهما خلال تلك المدة ، فتستعير صورة البحر الصامت الذي تختفي منه الحياة بينما تقف الشاعرة على شاطئه تصغي للصدى والهمس فلا تجد شيئا وفي القسم الثالث ـ وهو الذروة والنشوة ـ تصور عودة الحياة والحركة الى البحر وكيف رفت فوق مياهه حمامة زرقاء حملت اليها البشارة بعودته كما حملت الحمامة البشارة لنوح بعودة الحياة الى الارض وفي القسم الرابع تهمي الصور بفرح ونشوة لا مثيل لهما لتصور غبطتها به :

واطل وجهك من بعيد
حلوا يرف على وجودي
ورأيت احزاني تموت على تعانق راحتينا
واضاء في فمك ابتسام
البسمة الجذلى التي احببتها منذ التقينا
عادت تضيء كانها قلب النهار
وتصب في نفسي فيشربها دمي
ويعبها قلبي الظمي
ونسيت الامي الكبار
ونسيت في فرح اللقاء عذاب عام
عام طويل ظل في عمري يدب كالف عام ..

ولعل فدوى تلتقي بنازك في هذه القصيدة وفي كل القصائد الشاحبة المهمومة مثل « انا والسر الضائع » و « حتى اكون معه » و « الصخرة » و « انا راحل » و « دوامة الغبار » . لكن نازك الملائكة ترفض الحياة وتقف منها وقفة المعزول المتكبر ، ولو قارنا بين مطلع ـ العودة ـ وبين قول نازك :

وانقضى عامان ملعونان من اعوام حبي
مزقت روحي اظفارهما .. روحي وقلبي

لوجدنا الفرق بين الاحساسين واضحا ، كالفرق بين الفراق الذي ينتهي بلقاء والهجر الذي لا ينتهي ابدا . ولذلك جاءت الصور في قصيدة فدوى مترعة نضيرة : الماء والبحر والحمامة والعناق والابتسام . ويظل الشعر الذي يمثل فدوى هو الغناء النابع من اعماق تؤمن بالحياة وبالعطاء ، ان فدوى هي هذه النداءات الظماء والنجاوى الوالهة :

نادني من اخر الدنيا البي
كل درب لك يفضي هو دربي
يا حبيبي انت تحيا لتنادي
يا حبيبي انا لا احيا لالبي

وان فدوى هي هذا التمنع الحلو والنفور الخفر والسر المباح :

لا ، لا تسلني لن ابوح به ... سيظل حبك سر اغواري
اعطيه من ذاتي وامنحه ... ما عشت ، عاطفتي وايثاري
أسقيه من عطري ، اوسده ... صدري ، اناغيه باشعاري

ان شعر فدوى هو شعر امرأة طبيعية ذات نفسية سوية ، وهو شعر ادبية تعتمد على فطرتها وعفويتها . ولذلك تبتعد عن نزار قباني بسبب الفرق بين مغالاته في الاناقة ومغالاتها في العفوية ، كما تبتعد عن نازك لايغال نازك في الثقافة والاستبطان حتى نجحت في ان تجعل من

قصائدها دراسة شعرية لتجاربها ، اما فدوى فانها لم تنجح الا في الخطاب المباشر والقصيدة الغنائية ، فاذا حاولت ان تدخل الصنعة في التصوير فشلت وتزداد فشلا حين تحاول ان تعطي معنى انسانيا للعلاقة التي تتحدث عنها . ولذلك يصعب على الناقد اعطاء قيمة فكرية لانتاجها ، لان القيمة الفكرية للاثر الادبي انما تتحدد بالقضية التي يرتبط بها . ان فدوى مثلا تتحدث عن الحرمان وتتهم القيود الاجتماعية وتثور على جدران البيت الذي يستحيل الى سجن ، لكنها لا تربط هذه الظواهر بقضيةانسانية ولا ترى المظاهر عبودية انسانوخنوع امة. ولا تربط ثورتها بتمرد انسان على قدر موروث ، فهي تتحدث عن الجزئيات دون ان تصل الى الكليات . ولعلها لا تجعل شعرها قضية حياة بل سجلا للاشواق والذكريات والامال والاحلام. وما دامت القصيدة تعتمد على التداعيات فقد تستوعب ذلك كله . لذلك نجد قصيدة واحدة مثل « ذكريات » تعرض حنينها الى الغائب البعيد وذكرياتها عن ليلة الشط وحنانها الاموي لخدينها ، كما تحتوي ايضا على اصداء الماضي واحلام الحاضر وآمال المستقبل . وهذا الاسلوب يشتت القصيدة ويفقدها وحدة التأثير ويؤدي الى التميع احيانا لان هذه الافكار لا يضمها رابط معقول . وما دامت اكثر قصائدها تأخذ سمة المذكرات والاعترافات فان اداءها لا بد ان يكون مباشرا ساذجا احيانا فاقدا لمقومات الفن . الا ان ما يشفع لشاعرتنا هو مهارتها في رصد اللحظة الخصبة المليئة بالتوتر والعناصر المتناقضة التي ما تني وهي في دفع وجذب . الا انها لا تستطيع ان تمنحنا خصب هذه اللحظة ولا تزج بنا في توترها . ففي قصيدة « القيود الغالية » تصور فتاة تضيق باغلال الحب: بلهفته المتعبة وتشوقه المعذب . انها تتألم من قسوته لكنها لا تستطيع ان تهرب فهي ضعيفة امامه فتهتف :

حبيبي بما بيننا من عهود
بضحكة عينيك
اذا انا ضقت بأغلال حبي
وترث عليها وترث عليك
فلا تعطني انت حريتي
فقلبي قلب امرأة
من الشرق . يعشق حتى الفناء
ويؤمن في حبه بالقيود

هذه الزاوية الجميلة من قلب المرأة ، اكتشفتها فدوى طوقان ، فقدمتها بأداء فني ضعيف لانه مباشر وتقريري . ان التجربة وحدها لا تخلق فنا . واعتماد الشاعرة على العفوية يمنحها ميزة ذات حدين . والشاعرة تختار العفوية الفطرية مما يجعل الاداء فجا ، أما العفوية المثقفة فتختفي تحت أقنعة من الصور والالوان والانغام والاساطير ، انها تتخفى حتى تفقد الطابع الشخصي وتغوص في الاعماق ، وهذا ما يجعل أكثر قصائدها (مشروع قصائد) لا قصائد تامة . وقد تلافت هذا النقص في ديوانها الاخير « أعطنا حبا » . ولهذا طالت القصائد وكثرت اعادة الفكرة الواحدة بصيغ مختلفة ، كما في قولها :

لا تقل ان الحلا
لم يلفعنا . وان اليأس لم يلق علينا
ظله القاتم . لم يبق لدينا
قبسا يطفو على أحلامنا

فقد تناولت الشاعرة فكرة الحلال بثلاثة أشكال أغنت القصيدة ونال التعبير فيها اشباعا لم نشاهده من قبل ، بينما يكاد يتكرر في كل قصيدة فيمنح اسلوبها دقة وتلوينا وارهافا نحسه في هذا التقطيع الموسيقي للجمل ، وكلما تغيرت الصورة تغيرت النغمة وزاد المعنى دقة والتجربة تجسيدا ، كما في قولها :

يا حبها ، أتراك تذكرها ! هنا هي ما تزال
حس انتظار ، عد أيام ، نداء صامتا تحت الليال

وتحمل قصيدة « رجوع الى البحر » تطورا جديدا ، فهي تدور حول مغادرة الانسان لارض الاحلام حين يخيب رجاؤه ، وتستطيع أن تعرض فيها تعب البحارة وآمالهم وخيبتهم باسلوب رفاف يتطور متجاوبا مع متطلبات الشعر الحديث . وقيمة تطور فدوى يكمن في أنها من أكثر الشاعرات جمهورا ، ولذلك فانها حين تقدم لقرائها نماذج من هذا الشعر تعودهم على استيعاب التجديدات الجذرية التي طورت الشعر المعاصر . وفي حين تنعزل صفوة المثقفين تتذوق صفوة الشعراء العقلانيين كالحاوي والسياب ، فان فدوى تظل قريبة من عواطف الناس واذواقهم ، وتظل صوتا عذبا يغني أهواء القلوب بعفوية وجمال . أما الشعر فانها تمنحه من ينابيع مشاعرها الانثوية من عطف وحنين واشتياق ونفور . وقد تضيف الى مشاعرها الطبيعة والامومة فيزيدانها غنى وأصالة وعمقا .

دمشق — **محيي الدين صبحي**

شعر
من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها /	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب
بيروت — ص.ب ٤١٢٣